# لنكن قوة تفعل لا مادة تنفعل

للدكتور محمد يوسف موسى

من الظواهر الاجتماعية التي نراها في كل عصر وبيئة ظاهرة الفعل والانفعال ، أو التأثير والتأثر ، أو بكلمة واحدة ظاهرة التقليد ، فانفعال الطفل بأبويه وإخوته ، وانفعال التلميذ بمعلمه ، وانفعال المريد بشيخه ؛ كل ذلك ، وما منه بسبيل ، مشاهد غير منكور

وإذا كان لكل ظاهرة سبب أو مجموعة أسباب ، تظهر بظهورها وتذهب بذهابها ، فإن سبب هذه الظاهرة مزيج من القوة أو التفوق من جانب ، وضعف الإرادة أو الشخصية من جانب آخر وقد يضاف إلى هذا وذاك كسل العقل الذي يمنع من التفكير والاستقلال في الرأي .

على أنه قد يكون الشخص الواحد منفعلاً أو متأثرا في بعض ما يذهب إليه بآبائه والعلية من قومه المعاصرين له ، وإن اعتقد مع هذا أنه من المستقلين في الفكر والرأي ، ومن المحافظين على هذا الاستقلال والمعتزين به ، وذلك واضح لا يحتاج لضرب الأمثال .

ومع هذا لا عاب في التأثر بالغير في فكرة من الفكر ، أو مذهب من المذاهب ، أو طريقة من طرائق الحياة . بل إن هذا قد يكون ضرورة أحيانا كثيرة ، في حياة الفرد أو الجماعة ، ضرورة عليها الواقع وتفرضها الطبيعة .

يتأثر الطفل بأبويه ، ثم يتأثر بإخوانه ، ثم يتأثر . متى صار تلميذا ـ بمعلميه ويتخذ منهم مثله العليا . وهذا الضرب من الانفعال بالغير على هذا النحو ، أمر لا بد منه ولا حيلة فيه . إنه ضروري ليصل الصغير إلى معرفة كثير من الأمور ، ثم لينفذ من ذلك إلى تكميل نفسه فيما بعد ؛ بمعرفة أن له شخصية يجب أن تتكون وأن تكون مستقلة على قدر ما يمكن أن يكون هذا الاستقلال ؛ وبمعرفة أن له عقلا يجب أن يفكر به ليصل إلى إدراك أن هذا العمل شر وقبيح وإن أجمع عليه أبواه ومعلموه والناس جميعا ، وإن ذاك خير وجميل وإن كان قليل الأنصار . والنتيجة لهذا أن ينأى عن التأثر بالغير إلى درجة التقليد ، وأن يأخذ في الاستقلال في التفكير والرأي والعمل .

ومن الواضح ، بعد هذا ، أن الانفعال بالغير في هذه المرحلة من الحياة بصفة خاصة سنة من سنن الطبيعة لا بد أن تنزل على حكمها . ثم علينا متى تقدمت بنا السن ونضج العقل ، أن نحد منها ، وبمقدار ما نحد منها تتكون الشخصية ويظهر الاستقلال .

والانفعال بالغير كما نراه على أشده في المراحل الأولى من حياة الفرد الذي لا يزال في دور تكوين الشخصية ، نراه في حياة الجماعات في أول أمرها ، وفي حياة الأمة التي تحس ضعفها إزاء غيرها من الأمم . وفي هذا كله ، قد يكون التمثل بالغير في الخير ، كما قد يكون في غير الخير . وإلينا بعض المثل .

كان الأزهر إلى مفتتح هذا القرن العشرين شخصية خاصة به تتمثل ، فيما تتمثل فيه ، في طابعه الخاص في دراساته وامتحاناته ينتسب إليه من يريد غير مقيد بكثير من القيود التي نعرفها اليوم ، ويتلقى فيه العلم الذي يريد على من يحب من الشيوخ ، ثم متى أحس أنه وصل من المعرفة والعلم إلى ما يجيز له أن يكون من علمائه تقدم للامتحان . شأنه في ذلك ، إلى حد كبير ، شأن « السوربون » أو كلية الآداب بجامعة باريس هذه الأيام !

ثم أرادت الحكومة إصلاحه ( أو إفساده لا أدري ! ) ، متأثرة بثورات الطلاب ومطالبهم ، فأدخلت عليه ـ في الانتساب والدراسة وشئون الامتحانات ـ الكثير من القيود شيئاً فشيئاً متمثلة بذلك وزارة المعارف في معاهدها ودور التعليم بها ، حتى أصبحنا في هذه الأيام نجده يحتذيها في كل شيء تقريبا : مثل عدد سنى الدراسة ونظمها ونظم الامتحانات ، وبهذا ـ في رأيي

فقد الأزهر الكثير من شخصيته وطابعه وأصالته .

أما انفعال الأمة كلها بالغير فى كثير من أمورنا العامة ، والخطيرة ، فأوضح من أن نحتاج لأن ندل عليه . ومع هذا ، فإنى أشير إشارة عابرة إلى أثر ذلك فى التعليم والدستور والقوانين ونظم القضاء . وليس ببعيد منا ما كان من فرض قانون مدنى جديد قدمه واضعه بعد أن صافه من مزق مختلفة من قوانين أمم مختلفة من أمم أوربا . متناسيا أن ما تصلح به أمة فى الغرب قد لا تصلح به أمة أخرى فى الشرق ، لاختلاف الدين والتقاليد وإن كان فى هذا قدر كبير من الاثم على الأزهر ، إذ لم ييسر كتب الشريعة الإسلامية للراغبين فى معرفتها ، والمعنيين بدراستها ، من غير الأزهريين .

على أنه من الضرورى أن تنتفع الأمم بعضها ببعض فى الفكر ونظم الحياة ، ولكن الخطر أن يكون التأثر من طرف واحد دائما .

إن الانفعال أو التأثر بالغير بإفراط يضيع استقلال من منى به فردا أو جماعة ، ويذهب باستقلال الفكر وأصالة الرأى والعمل. ذلك بأن من يتطلع دائما إلى غيره ويسأله ماذا يرى وماذا يعمل ، يجعل من نفسه مادة يصورها ذلك الآخر كما يريد ، ويجعل نفسه فى رتبة البهيمة يصرفها الحدث من الغلمان على ما يشاء ويهوى . إنه بذلك يلغى ما وهبه الله له من عقل يستطيع به ، إن أراد ، أن يجعل له حياة خاصة وفكرا مستقلا به ولكنه رضى لنفسه أن يفكر له الآخرون ، وأن يخط له هؤلاء الاخرون مجرى حياته التى تضطرب فيه . إن هؤلاء الذين يتبعون دائما الأغيار ، يجعلون من أجسامهم مقابر لنفوسهم التى أماتتها التربية السيئة والتقليد المفيت ، بدل أن تكون هياكل لنفوس إنسانية لها حريتها واستقلالها . والجناية فى هذه واضحة ، وإنها جناية على الفرد والجماعة والدين نفسه .

ذلك ، بأننا نجمع على أن الإسلام دين كل زمان ومكان ، دين صالح لكل عصر وبيئة . ومع هذا فقد منعنا اتباع الماضين ، والجمود على ما كتبوا عن الاسلام لعصور غير هذا العصر الذى نعيش فيه ، من أن نحاول عرض الإسلام كما يجب : عقيدة وتشريعا وأخلاقا واجتماعا واقتصادا وأقول : « واقتصادا » عامدا ؛ لأن الإسلام ، وهو تشريع عام شامل ، ما كان يستطيع أن يهمل هذه الناحية الخطيرة التى تعتبر بحق مشكلة أمس واليوم والغد فى العالم كله .

إن علينا أن نكتب كتبا جديدة نعرض فيها الاسلام من تلك النواحى ، ونبين فيها كيف يجب أن نعمل لتحقيق العدالة الاجتماعية ؛ فإنه لا تزول هذه الفوضى ، ولا تتقى الشيوعية إلا بالقضاء على سبيلها الوحيد وهو الظلم الاجتماعى . تلك سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

بذلك ، وبذلك وحده ، تكون قد أدينا واجبا كبيرا للأمة والإنسانية كلها ، وبذلك نكون صالحين للتعاون مع ممثلى المسيحية فى تكوين جبهة لمحاربة الالحاد والمبادىء الهدامة . أما بالعكوف على القديم باعتباره وحده الحق ، وبالتقليد فى كل شىء حتى فى التفكير ومناهج الدرس ، فاننا لن نستطيع أن نصل إلى خير ، وتكون جناة على أمتنا وأبنائنا ، وتلك جناية يثقل علينا حملها ووزرها . نعم ، إنها جناية نكراء أن نجمد على ما ورثناه من تراث ، فلا نتناوله بالتوسعة والتعديل بما يناسب حاجات هذا العصر الذى نعيش فيه . وهل فعل أئمة التشريع من المسلمين ، الواحد بعد الآخر ، غير هذا ؟ إن هؤلاء الأئمة رضوان الله عليهم لو كانوا متبعين جامدين على ما ورثوا مقلدين لمن سبقهم ، لما كان لنا الآن إلا مذهب واحد فى التشريع ، بينما صار لنا من ذلك بفضل استقلالهم واجتهادهم فى الرأى مذاهب عديدة ، مذاهب نرجوا أن تتجدد وتزيد حتى نجد فيها توسعة وتلبية لحاجات الزمن فى العالم الاسلامى كله .

وهنا أجد من الواجب أن نرفع الصوت عاليا بأن كل من تقدمنا فى الحياة ، ما عدا الأنبياء والمرسلين ، فيما أرسلوا من أجله ، يخطئون ويصيبون . لا معنى إذاً للتأثر والاتباع فى كل شىء ، ولعل بعضنا يكون أفهم للأمر وأقرب للحق وأهدى إلى الصواب من كثير من هؤلاء السابقين . ومن أجل ذلك يكون فرضا على كل منا أن يعنى باستعمال عقله وأن يطلب لنفسه الاستقلال فى الرأى الذى يتبعه الاستقلال فى الشخصية ، وإلا كان مقصرا فى طلب الكمال الذى جعل الله وسائله .

الكلام بقية

محمد يوسف موسى